المحاضرة الثالثة عشرة

النقد البلاغي:

- الأدب بين البلاغة والنقد:

البلاغة قواعد تعين المبدع على التعبير البليغ، والنقد تحليل وكشف عن مواطن الإبداع، فالبلاغة تسبق الإبداع والنقد يتأخر، ثم في عملية التقعيد البلاغي حدود وتقسيم ومنطق عام، وفي عملية التحليل النقدي إبداع وحرية وجهد خاص، ولكن البلاغة والنقد ينطلقان من منطلق واحد هو الأدب، واشتراكهما في هذا الحقل يسمح بتجاورهما بل بداخلهما، خاصة في التراث العربي الذي امتزجت فيه المباحث البلاغية والنقدية، فالنقد نقد بلاغي والبلاغة بلاغة نقدية، بمعنى اعتماد النقد على مقولات البلاغة، واعتماد البلاغة على الحس النقدي، لذا كان النقد العربي القديم في غالبه نقدا بلاغيا.

النقد الأدبي يبحث في ظاهرة الأدب ويتخذها موضوعا له، وبما أن الأدب تعبير يقتضي البحث في أصوله ومواطن الجمال فيه، ندخل هنا في ميدان البلاغة، باعتبارها العلم الذي يبحث في الخصائص البلاغية في الكلام، ويحاول تحليلها وتعليلها، ومهما كانت البلاغة مهمة، فإنها قاصرة عن الاكتشاف والتحليل، لأنها لا تملك الوسائل اللازمة التي يمتلكها النقد الأدبي.

- تعريف البلاغة:

لغة: الانتهاء والوصول كقولنا: بلغ الشيء، إذا وصل إليه، أو انتهى إليه. وتبلغ بالشيء : إذا وصل إلى ما يريد، والبلاغ ما يتبلّغ به، ويتوصل إلى الشيء المطلوب.

واتّجهت دلالة البلاغة على الكلام، لا على الكتابة. من ذلك جواب صحار العبدي عن سؤال معاوية بن أبي سفيان عن البلاغة فقال: "ما تعدّون البلاغة فيكم؟". فأجابه: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على صدورنا، ثم سأله: عن ماهية هذا الشيء فأجابه: الإيجاز، فسأله عن

الإيجاز فقال: "أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"، ومن دلالاتها أيضا تخير اللفظ في حسن إفهام .

- اصطلاحا:

يعرفها القزويني بأن "البلاغة في مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته... فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعني بالتركيب"، فالبلاغة تقوم على: اختيار اللفظ وحسن التركيب واختيار الأسلوب الذي يناسب المتخاطبين.

فالبلاغة هي أن "يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي"، أي مراعاة ما يسمى "مقتضى الحال"، الذي هو صلب البلاغة الذي يدلّ على وضع الكلمة المناسبة في مكانها المناسب وهو " مخاطبة الناس على قدر عقولهم وفهومهم"، وهذا بغرض التأثير في النفوس.

واتّسعت دائرة الملاحظات البلاغية منذ العصر العباسي مع بروز بوادر عصر التأليف، وذلك بسبب تطور الشعر والنثر مع تطور الحياة الفكرية الحضارية، وبروز فئتين من المعلمين " فئة اهتمت باللغة والشعر، وفئة أخرى اشتغلت بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته"، كما أنّ النقد الأدبي العربي ظل لمدة طويلة انطباعيا وجزئيا وعاما، إلى أن صار في أواخر القرن الثاني الهجري جزء من جهد علماء اللغة والنحو، فظهرت لديهم قواعد أولية في النقد.

1- جهود الجاحظ في أوليات النقد البلاغي:

لا يمكن إغفال جهود الجاحظ في إرساء لبنات الدراسة النقدية والبلاغية، فقد غدت جهوده بحق الانطلاقة المنظمة في تدوين البلاغة والنقد في التراث العربي، ويتجلى ذلك في أن الجاحظ جمع في مؤلفاته العديد من الآراء النقدية، والقضايا الهامة التي تكون البلاغة والنقد، بالإضافة إلى ما أوتي الجاحظ من فكر عميق وأسلوب رسين و اطّلاع واسع، أثّر في من جاء بعده، الأمر الذي جعل النقاد يعدّونه " مؤسس البلاغة العربية " .

وتكمن أهمية جهود الجاحظ في البلاغة في أن النقد العربي يقوم على كثير من أصولها، كما أنه أول أديب عربي توسع في دراسة علم البلاغة، وأعطاه الكثير من الاهتمام الأدبي والفكري، يظهر ذلك الجهد في كتابه البيان والتبيين، الذي بحث فيه عن البيان أي الأدب وفنونه، والتبيين أي بتعريف عناصر قوة الأدب، وعناصر الجمال فيه، وعرض و النقائص التي تعتريه.

وتبدو عناية الجاحظ بالبلاغة من خلال الفنون البلاغية التي بحث فيها كالحذف، والإيجاز، والإطناب، والتّشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، وحسن الابتداء، وحسن التقسيم، والاقتباس، والتضمين، والسجع... ، وكان اهتمام الجاحظ بالبلاغة من خلال اطلاعه على بلاغة الأمم الأخرى كاليونان والفرس والهند والرومان. فقال: "... قيل للفارسي ما البلاغة؟. قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة ؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة".

وتتحقق البلاغة عنده" متى كان اللفظ كريما في نفسه، متخيرا في جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول".

وبهذا يربط الجاحظ بين البلاغة والفصاحة، وقد ركز على أهمية مطابقة الكلام لمقتضى الحال فقال في ذلك : " لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإن كان موضع الحديث على أنه مضحك ومُلهٍ وداخل في باب المزاح والطيب، واستعملنا فيه الإعراض انقلب على جهته، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السّخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسرّ النّفوس يكربها ويأخذ بأكظامها" .

وأما الجانب النقدي عند الجاحظ، فيظهر في عرضه لأهم قضية نقدية بلاغية هي اللفظ والمعنى، والجاحظ يؤكّد على شرف اللفظ والمعنى، فقال: "إنّ من أراد معنى كريما، فليلتمس

له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصانا عما يهجّنهما ويفسدهما..." ، ويرى أن الحكم بجودة الشعر لا يقوم على الزمان أو العرق، وإنما يقوم على الجودة الفنية في صياغته.

ويبقى الجاحظ من أوائل الكتاب الذي أولى عنايته لتناول البلاغة والبيان، فهو قد "ترك أثرا عميقا في النقاد العرب الذين جاءوا بعده، ووسم النقد العربي في القرن الثالث بميسمه الخاص ويكفيه هذا فخرا".

2-إسهامات ابن المعتز في النقد البلاغي في كتابه "البديع":

كان هدف ابن المعتز من تأليف كتابه "البديع" أن يبحث في بعض الظواهر البلاغية، في القرآن الكريم وشعر العرب القديم ، وبفضل جهود هذا الناقد صارت معالم علوم البلاغة واضحة استفاد منها من جاءوا بعده فأسسوا ما يسمى " النقد البلاغي"، الذي يهدف إلى دراسة الأدب وفق أصول البلاغة.

ففي مقدمة الكتاب يورد ابن المعتز سبب تأليفه لهذا المصنّف، وهو الرد على معاصريه الذين زعموا أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبا نواس، هم أول من استعملوا مصطلح "البديع" في شعرهم، ومما جاء في هذا الرد قوله: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صل الله عليه و سلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين، من الكلام الذي سماه المحدثون (البديع) ليعلم أن بشارة ومسلمة وأبا نواس ومن تقيّلهم (تشبه بهم) وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في شعرهم فعُرف في زمانهم حتى شقي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه " .

فكلامه هذا فنّد زعم أنصار التجديد من الشعراء بأن البديع من ابتكارهم، ويثبت بالشواهد من الأدب القديم أنّ العرب قد عرفوا الأساليب البديعية منذ زمن بعيد قبلهم، وكلّ ما في الأمر أن القدماء كانت فنون البديع قليلة عفوية، وعند المحدثين كانت كثيرة واضحة.

ومن الآراء النقدية الهامة التي تضمنها كتاب ابن المعتز، هو جمعه لكثير من المصطلحات البلاغية، وتفريقه بين الشكل والمضمون، أي بين اللفظ والمعنى، واعتبر الألفاظ والصور الفنية شكلا من أشكال التزيين للشعر، بينما المعنى عنده هو الجوهر، وذكر كثيرا من أبواب البيان والبديع، واعتبرها جلية يحسن بها الشعر، وعمد إلى تقسيم أبواب الكلام، فتحدث عن الاستعارة والطباق والجناس والاعتراض وغيرها مما يتصل بالصنعة الشعرية والصياغة الفنية، وتظهر قيمة آراء ابن المعتز في هذا الكتاب في " أنه حدد خصائص مذهب البديع، وأثر في النقاد والبلاغيين اللاحقين له".

3 – النقد البلاغي في عيار الشعر لابن طباطبا العلوي:

نلاحظ من مضمون هذا الكتاب أن النقد ابن طباطبا مزج بين البلاغة والنقد باعتماده على بعض فنون البلاغة في نقده للشعر، وكان هدفه الأساسي هو البحث في صناعة الشعر والميزان الذي تقاس به بلاغته، ولذلك فقد حثّ على لزوم معرفة جملة من القواعد التي تجعل الشعر حسنا بليغا، منها الطبع والذوق ومعرفة اللغة والنحو ومعرفة أيام العرب وطريقتهم في نظم الشعر ومناهجهم في الكلام، وغير ذلك مما رآه لازما لصناعة الشعر.

وأشار إلى بعض أبواب علم المعاني، كالإيجاز والإطناب والمساواة والتقديم والتأخير، ومراعاة الكلام لمقتضى الحال، الذي يعده من أسباب جودة الشعر، الذي قال فيه: " ولحسن الشّعر وقبول الفهم إيّاه علة أخرى، وهي موافقته للحال التي يعدّ معناها كالمدح في حال المفاخرة، وكالهجاء في حال مباراة المهاجي، والحط منه.. وكالمراثي في حال جزع المصاب وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه.. وكالغزل والنسيب عند سلوى العاشق واهتياج في شوقه...".

وتحدث أيضا عن أهم مبحث في علم البيان، له علاقة بالبلاغة وهو التشبيه، فبين وجوه التشبيه وأقسامه، وربط بين طريقة تشبيه العرب المستمدة من بيئاتهم.

– فأول قسم للتشبيه هو تشبيه الشيء بالشيء في صورته وهيئته مثل:

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا أرحلنا الجزعُ الذي لم يثقّبِ

وهنا يشبّه الشاعر بريقَ عيون الحيوانات التي تحيط بهم ليلا بالخرز غير المثقوب، فعيونها تتلألأ كما تتلألأ الخرزة.

– والقسم الثاني للتشبيه هو تشبيه الشيء بالشيء لوناً وصورة، كتشبيه لون الشفاه بالأقحوان، فهما سواء في اللون والصورة.

– والثالث هو تشبيه الشيء بالشيء صورة ولوناً وحركة وهيئة، مثل: الشمس كالمرأة في كفّ الأشل.

– النوع الرابع هو تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة كقول الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ

– والخامس هو تشبيه الشيء بالشيء معني لا صورة، على نحو تشبيه الكريم بالبحر، والشجاع بالأسد.

كما تطرق إلى الكناية ودعاها التعريض"، وهي أيضا مبحث بلاغي، وتكلم عن المبالغة المفرطة للشاعر في معانيه، وسماها بالغلو، واستشهد بقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلقِ

وتكلم ابن طباطبا أيضا عن قضايا نقدية أخرى، مثل ملاءمة معاني الشعر للمباني، وتماسك المعاني والألفاظ للأبيات وترابطها، ووحدة السياق، وتطرق في حديثه أيضا إلى قضية الصدق ، وقال بأنه صنو الجمال والحق، كما عالج قضية اللفظ والمعنى، وقضية التناسب والانسجام، وقضية السرقات، وقضية الطبع والصنعة، والوزن والقافية، وثقافة الشاعر، وقضية القدماء والمحدثين، ولهذا تبقى آراء ابن طباطبا " المستفيضة فيما يستحسن لأجله الشعر وما

يغلب عليه مما يدخل في صميم المباحث النقدية... وإنّ مساهماته في مناقشة مفاهيم المصطلحات البلاغية لأمر جدير بالاعتبار".

4. قدامة بن جعفر والنقد البلاغي في كتابه النقد الشعر":

يعتبر النقاد البلاغيون قدامة رائدة من رواد التأليف البلاغي في القرن الرابع الهجري، فقد نعتوه بـ "جواب البلاغة ونقادها البصير، والمهيمن على معانيها "، وكتاب "نقد الشعر" يعتمد في نقد الشعر على مفاهيم بلاغية، وذلك من خلال تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب فيما يستحسن وما يستقبح فيها الشعر، فتناول فيه بعض المصطلحات البلاغية والنقدية التي تكشف عن ثقافة قدامة الواسعة، وتأثره بالفكر اليوناني، ذلك أن " الفنون البلاغية التي ذكرها تشير إلى الصلة الحميمة بين البلاغة والنقد عنده".

وتحدّث قدامة في كتابه هذا على البلاغة، وتناول فنون المعاني كالإيجاز والإطناب والمساواة، وتكلم أيضا عن فنون البيان كالاستعارة، والكناية، والمحسنات اللفظية والمعنوية كالسجع الجناس، والمقابلة، والمبالغة، والغلو... وهذه الفنون البلاغية التي تناولها قدامة ما كان تناوله لها "على أنها أبحاث في البلاغة، وإنما تناولها على أنها شروط تصل بالأسلوب إذا توافرت فيه إلى الجودة والكمال ".

ومن القضايا النقدية التي أثارها في كتاب "نقد الشعر" نذكر: قضية اللفظ والمعنى، والطبع والتكلف، والقدم والحداثة، والسرقات الشعرية.. ويبقى هذا المؤلف النقدي الذي امتزج فيه النقد بفنون البلاغة شاهدا حيا على تطور هذه المصطلحات البلاغية وجعلها من معايير النقد عند قدامة بن جعفر.

وبالنظر إلى القضايا النقدية الهامة التي عالجها قدامة في كتابه النقد الشعر"، فقد عده النقاد مصدرا أساسيا اعتمدت عليه المباحث البلاغية والنقدية التي جاءت بعده، لأنه مثل التيار الشعري الذي يعتمد على حدود المنطق والفلسفة.